صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Rédacteur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
ص. ب ٤١٢٣ بيروت ــ تلفون ٢٣٢٨٣٢
AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - LIBAN
الادارة : شارع سوريا ــ بناية درويش
B.P. 4123 - Tel. 232832

العدد العاشر
تشرين الاول (اكتوبر)
السنة السادسة عشرة

No. 10
Octobre
16 ème année

الصغير والحرتينة

قصة بقلم غسان كنفاني

اتكأ بظهره (*) المبتل على صخرة وفرش ساقيه منفرجتين وأخذ ينظر الى السماء : كانت غيوم داكنة تتسابق فوق رأسه وقد توهجت أطرافها بضوء الشمس فبدت كأنها تلتهب ، وخيم حوله صمت ثقيل : أبدا لم يخطر في باله ان مثل هذا الوعر يمكن أن يكون موجودا . حتى حين قال له خاله ان الطريق بين مجد الكروم وصفد تستعصي على الماعز لم يصدق ، وابتسم بهدوء وهو يمد له كفيه فيتلقى البندقية التركية العتيقة ، وحين ضمها الى صدره قال له خاله مرة أخرى :

ــ الطريق بين مجد الكروم وصفد وعر يستعصي على الماعز ، ان ولدا مثلك سوف يموت في الشول قبل أن يقطع نصف المسافة .

ودون أن يلتفت اليه رد ، للمرة العاشرة منذ الصباح ، على كلمة ولد التي لا ينفك خاله يوجهها اليه :

ــ أنا لست ولدا .

ــ عمرك سبعة عشر عاما ، والبندقية التي تحملها تزن أكثر من نصف وزنك ، والطريق طويلة شرسة .

وانتابه الرعب لحظة واحدة فقط فشد البندقية الى صدره واستدار فواجه خاله من جديد :

ــ اذا كنت خائفا على بندقيتك فقل ذلك بصراحة .

ــ أنا خائف عليك . أنت مجنون صغير ولكنني لا أريد أن أفشلك، لماذا لا تقف على الطريق وتركب السيارة فتصل الى صفد ؟ لماذا ، أصلا ، تريد الذهاب الى صفد ؟ قلة رجال هناك ؟

ولم يبد على خاله انه يريد أجوبة لكل هذه الاسئلة ، ففور أن انتهى من الكلام مد يده فربت على كتفه ، ووضع حدا للحوار الذي استمر ساعة وأكثر من ساعة :

ــ مع السلامة ، انتبه دائما الى أن هذا المدفع الذي تحمله وحش لا أمان فيه ، انه شيء قديم ، ولكنه ما زال صالحا .

هذا الخال الغريب الذي يطلق أسماء أخرى على الاشياء ، يقول له ولد بدل أن يناديه باسمه ، ويسمي البندقية العتيقة مدفعا ، يعرف حقيقة الامور أكثر من أي مخلوق آخر على ظهر هذه الارض . فحين دق بابه في أبكر الصبح ورجاه أن يستعير بندقيته لم يتردد لحظة واحدة ، ولكنه أمضى أكثر من ساعة يحذره فيها من الطريق وضراوة الطريق ، وكان تحذيره صحيحا تماما ، لقد انتصف النهار ولم يزل في منتصف الطريق ، ويخشى الان أن يصل الى صفد مع حلول العتمة ، اذا وصل !

مطر ليلة البارحة بلل التراب وغسل صخور هذا الجبل الاجرد ، ورغم ذلك فان الجفاف ما زال متبديا بوضوح . حين شهدته أمه يتسلل من باب البيت مع الفجر لم تسأله عن وجهته ، ولكنها طلبت اليه أن يتدثر بمعطفه ففعل دون مناقشة . أكانت تعرف ، يا ترى ، خطته التي مضغها وحده ثلاثة أيام قاسية ؟

بعد ربع ساعة فقط مرت سيارة عتيقة قادمة من عكا ، فحشر نفسه في زحام ركابها الصامتين المتدثرين بمعاطفهم ، ودفع للسائق آخر قرشين كان يحملهما فدسهما في جيبه دون أن ينظر اليهما ، وحين نزل على مفرق نحف لاحقه الركاب بعيونهم الصامتة : كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها الواهنة حين أخذ يتسلق الطريق الترابي الذي يفصل نحف عن الشارع العام ، وكان صقيع الليل الجبلي ما زال يخز عظامه بقسوة .

دق بقبضته الباب الخشبي لدار خاله أبو الحسن . كان يعرف ان خاله قد انتهى من صلاة الفجر وهو في سبيل أن يعود الى فراشه لينام مرة أخرى حسب عادته التي لم يغيرها منذ وعى خاله وبيت خاله . وحين فتح الباب وردت العينان المدهوشتان تحية الصباح بسط حكايته بايجاز ، قبل أن يخطو الى الداخل :

ــ الشباب في صفد يحاصرون القلعة ، جئت أستعير بندقيتك لاذهب الى هناك ، هل ستعطينيها ؟

ــ ومن أين ستحصل على الفشك ؟

ــ اشتريته .

ــ كم فشكة ؟

(*) من مجموعة « عن الرجال والبنادق » التي تصدر هذا الشهر عن « دار الآداب » .

ـ حوالي العشرين .
ـ وبعشرين فشكة تغزو قلعة صفد ؟
ـ هل تعيرني بندقيتك ؟ سأعيدها لك بعد يومين .
ـ واذا مت ؟

قالها خاله باسما كأنه لا يصدق الحكاية ، ولكنه لم يبتسم ولم يتردد ، كان قد أعد جوابا لكل هذه الاسئلة :

ـ اذا مت سيعيدها لك حسام ، انه هناك وسأوصيه بذلك .

دار خاله على عقبيه وخطا اتى الداخل ، وحين غيبه الممر سمع صوته ينادي : ـ أدخل أيها الولد ، تناول الفطور .

ولكنه لم يدخل ، كان قد قرر ذلك منذ البدء ، وصاح بدوره :

ـ هل ستعطيني المرتينة ؟
ـ حلمت بها الليلة ؟ لماذا لا تقول يا فتاح يا عليم ؟
ـ أريد أن أعرف ، لا أريد أن أضيع وقتا ، اذا كنت لا تريد اعارتي مرتينتك فعلي أن آذهب فورا الى كسرة ، عند أبو مصطفى مرتينة أخرى قد يعيرني اياها .

ومرت لحظات صمت طويلة ، ثم أطل خاله مرة أخرى من آخر الممر وأخذ ينظر أليه بامعان : كان طويل القامة عجوزا لم تؤثر السنون بعرض منكبيه ، مشمرا عن ساعديه المكسوين بشعر غزير شائب وواضعا طاقية مطرزة فوق شعره الابيض القصير ، مرت لحظات أخرى تبادلا فيها النظر بصمت كأنه الامتحان ، وجاء السؤال الذي كان ينتظره منذ البدء : ـ هل رويت هذه القصة للعجوز ؟

ـ أمي لا تقبل أن تسميها عجوزا .

وابتسم ، الا ان خاله كرر السؤال وهو يقطب حاجبيه معلنا له ، بهذه الطريقة ، عدم عزمه على المزاح :

ـ العجوز ، هل عرفت خطة ابنها ؟

وانتابته سعادة مفاجئة ، فقد اكتشف لتوه ان الجد قد بدأ ، وان خاله شرع يدرس التفاصيل ، ومعنى ذلك انه ، في نهاية المطاف ، سيحصل على البندقية .

خلع نعليه ودخل ، فوسع له خاله طريقا في الممر الذي كان يسده بذراعيه ، ولاحقه بعينيه الضيقتين وهو يدخل الى الغرفة المفروشة ببسط الصوف ومساند القش ، وحين جلس هز خاله رأسه بأسى ، وكف عن انتظار الجواب ، وما لبث أن توصل الى القرار :

ـ أم الحسن تغلي الشاي ، لا تقل لها شيئا ، سأعطيك المدفع .
ـ كنت أعرف ذلك .
ـ أنت تستقل طيبة قلب خالك ، أنت ولد شقي .. من أين اشتريت الفشك ؟ ـ من مجد الكروم .
ـ كم دفعت ؟ ـ جنيها ونصف . ـ من أين ؟
ـ حلالي ، انت تعرف : قرش فوق قرش .
ـ على أي حال ، الرصاص المسروق يقتل أيضا .

كانت المرتينة تحت الفراش ، وكان يعرف ذلك تماما ، فطوال أربع سنوات كان خاله يسمح له كل يوم جمعة تقريبا أن يطلق منها رصاصة أو رصاصتين في الحقل . وكانت ، فيما بعد ، تنظف وتزيت وتدفن تحت الفراش من جديد .

كانت بندقية ثقيلة ، ولكنه حملها باستخفاف ودون أن ينظر اليها ، وحين فتح له خاله الباب بهدوء ، كي يتسلل قبل أن تراه أم الحسن ، علقها على كتفه ، وبخطوات بطيئة ما لبثت أن تسارعت حتى تحولت الى هرولة ، اتجه الى الشرق ، وتسلق حواجز الحقول القليلة التي اعترضته ، ثم أخذ يضرب في الوعر .

قال له خاله ان عليه الابتعاد قليلا عن حقول مستعمرة راما التي ستلاقيه على الطريق ، وانه اذا واصل المسير شرقا مع انحراف طفيف الى الشمال فانه لن يلاقي الا بعض القرى العربية ، ثم سيجد نفسه في الوديان المحيطة بصفد .

مر من انهار نصفه فشعر بالبندقية تزداد ثقلا على كتفه ويضرب كعبها فخذه بلا هوادة ، فقرر أن يستريح هنيهة ، وحين اتكأ بظهره على صخرة تقع الى جانب الطريق الضيق الذي حفرته أقدام الانسان منذ عشرات السنين وهي تختصر الجبال شعر بعضلات ساقيه تتمزق ، ومرة أخرى انتابه رعب مفاجيء ، الا ان البندقية كانت هناك ، مستريحة فوق فخذيه ، مثل شيء أسطوري يبعث في صدر الانسان اطمئنانا مجهولا .

ـ « ذلك أفضل ، على أي حال ، من فقدان المرتينة » . قال ذلك بصوت عال ليزيد في اطمئنانه « الطريق المعبد مليء بالدوريات الانكليزية ، واذا شاهدوها معي صادروها » .

ربت على ذراع البندقية وابتسم بوهن :

ـ ثم ان القروش ذهبت الى الفشك .. أنت تعرفين ذلك .

أوقفها أمامه وثبت كعبها بين قدميه ثم عاد فضغطها بكلتا كفيه ففاضت قليلا في التراب الرطب ، أزاح كفيه عنها بحرص ، ولما لم تقع عقدهما خلف رأسه واتكأ على الصخرة من جديد وأنشأ ينظر اليها .

ـ سوف أحصل عما قريب على مرتينة خاصة ، ستكون لي وحدي ، وأنت ستعودين الى بيتك تحت فراش الصوف ، واذا سمح لك بالخروج فانما لاصطياد العصافير والسناجيب فقط ، الثعالب أيضا ، ربما ، في حالات نادرة ..

كانت بندقية ذات ماسورة طويلة تنتهي بفوهة فقدت مسمارها ، وكان حزامها الجلدي قد انقطع فربط خاله عوضا عنه حبلا من الليف بلله الزيت وسودته الايدي المتسخة بالطين سنة بعد أخرى فاكتسب لونا قاتما ثقيلا . كان بيت النار يتسع لفشكة واحدة فقط تدخل اليه من فتحة في الجانب ، ولم يكن يدري فيما اذا كانت البندقية في الاصل قد صنعت على هذه الشاكلة ، أم ان مرور الزمن قد انتهى بها الى هذه الصورة الغريبة . لا شك ان مكانا ما كان قد خصص لوضع مشط يتسع لخمس فشكات أو ست ، وكان عليك آن تسحب المغلاق مرة الى فوق ومرة الى الوراء كي تسقط فشكة وراء الاخرى في بيت النار ، الا ان مثل هذا الشيء لم يعد موجودا الان ، وربما كان أمر اكتشاف الصورة الاصلية لهذه المرتينة قد آضحى من اختصاص خبير متمكن في علم تاريخ السلاح . لقد عامل خاله البندقية هذه كما كان يعامل أشجار حقله الصغير : يقصقص عروقها ، ويسلخ فروعا منها ليطعم فيها فروعا أخرى ، يرقعها ويشذبها ويملأ نواقصها حتى تعود فتبدو كتلة واحدة من جديد . ترى ماذا فعل بهذه البندقية في ربع القرن الاخير ؟ ربما كانت علاقته بها هي التي جعلته يسميها مدفعا ، فقد فقدت في الحقيقة كثيرا من صفات البندقية ، ولسبب ما صارت تصدر ، حين الاطلاق ، صوتا مدويا كالرعد .

ـ « ورغم ذلك فأنت مرتينة طيبة ، وتصويبك يكاد لا يخطيء .. المهم في الامر هو انك أمينة ، فأنت لا تخرجين رصاصك الا من مكان واحد ، انني أرجو ذلك ، على الاقل » .

كان لذراعها لون بني كامد ، وبدا كأنه مكون من قطعة واحدة ، الا أن ذلك لم يكن صحيحا ، فقد شهد خاله ، مرة ، يرقع الذراع بقطعة من خشب الزيتون نشرها ونعمها بعناية لا تصدق ، ثم دقها الى الذراع ببراعة فائقة : كانت قطعة من الذراع قد انسلخت حين أضطر خاله ، ذات يوم ، لان يستعمل عقب البندقية في قتل افعى فاجأته في طريق عودته الى الدار ، ولقد تحطم يومها رأس الافعى وجزء من ذراع البندقية معا ، ولكن ذلك الحادث لم يكن ليستطيع أن يقنع أبا الحسن بأن عمر المرتينة قد انتهى .

ـ « لو كنت أملك بندقيتي لما استعرتك من خالي أبو الحسن ، ويجب أن تكوني طيبة جدا معي كي أستعيرك مرة أخرى في المستقبل . انه شيء غريب ، أليس كذلك ؟ أعني أن أذهب من مجد الكروم الى نحف كي أستعير مرتينة أقاتل بها في صفد .. أن مرتينة أبو مصطفى في كسرة مرتينة جيدة ، لها مشط وحزام وكل ما يلزم المرتينة لتكون سلاحا جيدا ، ولكن أبو مصطفى لن يعيرني مرتينته ، ثم ان كسرة ليست على الطريق بين مجد الكروم وصفد ، وذلك حري بجعل المسافة أطول .. » .

وفي أقل من لحظة واحدة كان قد انتصب واقفا ، واختطف البندقية وأنشأ يحث خطاه ضاربا في الوادي تجاه الشرق :

ـ « لعن الله الخيال ، لعن الله أحلام اليقظة ، كما يقول

الاستاذ » .

وحاول أن يفكر بالاستاذ ، الا انه هز رأسه مبعداً الفكرة بعنف ، وعلق البندقية على كتفه وشد قبضته على الرصاص في جيب سرواله وبدأ يهرول : كانت الشمس قد صارت فوق رأسه مباشرة ، الا انها كانت سجينة غيوم تتكاثف تحتها مثل ندف القطن .

ـ بعشرين فشكة تغزو قلعة صفد !

هتف مرة أخرى بتلك الجملة الساخرة التي قالها خاله ، والتي بدأت الان تلح على ذهنه ، وأزاح كومة عوسج بكفه وبدأ يتسلق ركاماً من الحجارة اعترضت الطريق وفكر : « لو حمل كل رجل في الجليل عشرين فشكة واتجه الى قلعة صفد لمزقناها في لحظة واحدة » بدأ يهبط كومة الحجارة بحذر وبساقين متصلبتين فيما أمسك ذراع البندقية ، وراء ظهره ، بكفه وأبعدها عن جسده ليحتفظ بتوازنه : « هذا يحتاج الى كثير من الجهد ، والى قيادة ، كما قال الحج » . وحاول للحظات قليلة أن يتصور معنى هذه الكلمة ، قيادة ، الا انه لم يفلح ، تصور بادىء الامر أن مهمة القائد هي أن يدور على المقاتلين واحداً واحداً ويرشدهم الى ما يتوجب عليهم فعله ، الا انه استبعد هذه الصورة : « كلام فارغ ، ليس الامر بهذه البساطة » . وحين عجز عن تصور مزيد من التفاصيل استبعد الفكرة نهائياً وانصرف الى حساب الساعات التي قضاها في الوعر : « لا بد أن تكون ستساعات أو سبعاً » . وفكر في أن يستريح مرة أخرى ، الا انه قرر مواصلة السير .

أبوه وأمه سينتظرانه ليتناول الغداء ، أليوم يوم جمعة ، ووقت الصلاة قد مر منذ أكثر من ساعتين ، عادة يتناول الغداء مع والديه يوم الجمعة . وسوف يفتقدانه ، ثم سيبدأ أبوه الطعام ، وسيقول وهو يمضغ اللقمة الاولى :

ـ قلبك على ابنك وقلب ابنك على الحجر ... هذا الصغير الشقي ..

وسترد أمه برهة ، حاستها السادسة ستخزها ، عفريتها ، كما تحب أن تقول ، يوشوش في أذنها أخباراً تبعث في نفسها القلق ، ولكنها تخفي ذلك عن زوجها ، وتمد يدها ببرود الى الطعام ، وسوف يراقبها هو بطرف عينيه ، ثم سيقول :

ـ « أنت تحسبين أنه لن يأكل الان ، ها ؟ تحسبين انه يتناول طعامه الان من قفا يده ، كما تفعلين ، أقسم بعظام رقبة والدي انه يلتهم غداءه في جهنم الحمراء بكلتا يديه وملء حلقه دون أن تخطر على باله لحظة واحدة » .

ولن ترد أمه ، وتواصل الاكل كأن ما قيل ليس موجها اليها ، هذه هي عادتها حين تكون ، في أعماقها ، منصرفة الى التفكير بأمر آخر .

على بعد ساعة بالسيارة الى الغرب ، تقع عكا ، منها الىالجنوب قليلا تقع حيفا . في شارع الملك فيصل يعيش ابنهما الاكبر ويعمل ، ففي الغرفة الخارجية من شقة فخمة في الطابق الثاني توجد عيادته ، فيما يعيش في الغرفتين الداخليتين وحده ، لم يتزوج بعد . في سبيل أن يناديه الناس « يا دكتور » باع أبوه قطعة زيتون ، وخصص لكل عام كومة من تنكات الزيت تباع لتصرف على كتب ونظارات الدكتور قاسم .

ورغم سخرية الاب فقد أفلح الابن ، وعاد من بيروت ذات يوم وكان أول شيء فعله ، حين تلاقى مع أبيه الذي ذهب ليستقبله في عكا ، هو أن مد لسانه ، على قدر ما يستطيع بلعومه أن يدفع ، في وجهه :

ـ أهذا هو ما تعلمت عند الاميركان في بيروت ، يا ولد يا قليل الادب ؟

وقال قاسم ، الذي أعد الجواب بدقة طوال الطريق :

ـ كلا ، تعلمت الطب ، أنا دكتور الآن ، دكتور طويل عريض رغم انك صرفت السنوات الماضية كلها تقول ان ذلك مستحيل ، وتقول انني ولد فاشل سأدرس ألف سنة ثم أعود الى المحراث !

ولم يستطع الاب أن يكبت فرحة اجتاحت صدره ، فأخذ بذراع ابنه ودفعه الى سيارة فورد عتيقة عربن عليها منذ الصباح لتنقلهما ، والحقائب والكتب ، الى مجد الكروم حيثحشت أم قاسم ثلاثدجاجات ورقبة وفوارغ ولمت العائلة والحموله وغربت الى نصف الطريق تتلقى العائد العزيز .

ـ يا دكتور قاسم ، منذ عشرات السنين تعلمت في القراءة الرشيدية أن ... وقاطعه قاسم ضاحكا :

ـ الحمار حمار ولو بين الخيول ربا ! دائما تقول ذلك حين أقول لك انني سأصير طبيبا . الامر يختلف الآن ، الحمير والخيول ستبقى في مجد الكروم ومحسوبك سيفتح عيادة في حيفا .

وبنفس السرعة التي يستطيع الفرح أن يجتاح بها صدر أبو قاسم اجتاح الغضب عروق جبهته :

ـ حيفا ؟ قلة أطباء في حيفا ؟ ـ أين تريدني أن أعمل اذن ؟

ـ في مجد الكروم يا ولد يا عاق .

ـ مجد الكروم ؟ تحسب انني حلاق أداوي الامراض بالعلق ؟ ان أتخن راس في مجد الكروم سينقدني تعريفة ، على الاكثر ، ماذا ؟ أتريدني أن أموت جوعا ؟

وأطبق أبو قاسم شفتيه باحكام ، انتهى الامر ، لحظات الفرح كلها انتهت ، وهو يعرف تماما انه اذا ما استمر في الحديث فسيهدر بما لن يرضي الولد الذي وصل لتوه من آخر الدنيا . ولوهلة أحس بغصة في حلقه ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لابنه لحظة ضعف واحدة فأنشأ يحدق من شباك السيارة فتنسحب أمام عينيه حقول الزيتون تلتمع أوراقه في الشمس كصفائح صغيرة من الفضة .

ـ كيف أمي ؟

ـ بخير .

ـ والصغير ؟

ـ في المدرسة ، هذا الصغير يحب الحقول .

وانفرج صدره ، وعاد اليه الفرح فجأة ، وتبدت أمامه حقول الزيتون تشع بضوء مقدس :

ـ الصغير يحب الحقول ، حين يعود من المدرسة يغوص في الساقية الى ركبتيه ، ان له يدي فلاح حقيقي .. في كثير من الاحيان يتسلل من البيت في الليل وينام تحت الزيتون ..

ومرة أخرى جاءه صوت قاسم مقاطعا :

ـ أنتم تقتلون هذا الولد ... تقتلونه والله العظيم ! غدا سآخذه معي الى حيفا ، وسيعرف كيف يصنع مستقبله كما يشاء .

وفجأة استدار أبو قاسم وأمسك ابنه من زنده بقوة :

ـ أنظر الى اليهود ، حين يجيء الواحد منهم ينصرف الى العمل في القرى ... لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم ؟

الا ان السيارة وقفت ، وفي اللحظة نفسها شهد أبو قاسم بوضوح ، بوضوح لن ينساه مدى الحياة ، نظرة احتقار عابرة تلتمع في عيني ابنه ، نظرة لم تلبث أكثر من لحظة صغيرة بارقة ، ولكنه استطاع أن يلتقطها وأحس بها تسقط الى صدره كانهيار جبلي راعد ، وفي اللحظة التالية علت الزغاريد وانفتح باب السيارة ، ونزل قاسم فتلقفته الاذرعة والاثواب المزركشة ، ومن داخل السيارة ، وهو مسمر في مقعده كالحجر ، شهد زوجته تمرغ وجهها الاسمر الباكي على وجه ولدها العائد فتبلله بالدموع ، ثم تنهمر على ركبتيها وتجهش ببكاء غريب على صدره فيما أخذت تشده اليها بذراعيها المعقودتين وراء ظهره باحكام ، وحولهما كانت الزغاريد تعلن فخارها العميق بالرجل الذي ذهب فلاحا وعاد طبيبا : يا سندي يا ولدي يا كبدي ، يا ابن مجد الكروم يا فخرها .. يا عودة الفارس ، يا احرسه يا حارس ، يا مئة اصبع في عين الحسود يا احميه يا معبود !

وفيما كانت العائلة تزف قاسم الى البيت كان أبو قاسم يسير بعيدا وراء الحشد الصاخب ، يلتقط عودا ويضرب به جانب قنبازه فيصدر صوتا كالتمزق ، ومن مكانه شاهد الصغير يعدو وراء الحشد محاولا تلمس أخيه الكبير العائد . قصف العود وطواه الى بعضه ثم ألقاه الى الارض وبدأ يحث خطاه :

ـ « بقي الصغير » .

غسان كنفاني